AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

892.78
R572YkA
C.1

امين الريحاني

بقلم

سامي الكيالي

١٩٤٨

المطبعة المارونية
حلب

Cat. Jan. 12, 54

من ادباء العرب المفكرين الذين كان لهم مقام مرموق بين ادبائنا المعاصرين المرحوم امين الريحاني ، وقبل ان اتناول سيرته اريد ان اقول كلمة عن ادبنا المعاصر ، واذ أقول الادب المعاصر اريد هذه الصيحات التي يرسلها الادباء وتفيض بها قلوب الشعراء من أدب وجداني الى مقالات منثورة في ظواهر الحياة والمجتمع ، الى دراسات تتناول حياتنا العقلية وتبحث أدبنا في ماضيه وحاضره ، الى شعر يصور هذه الهجسات القومية ، والتأملات الذاتية ، الى غير ذلك من الصيحات والنفحات .. وكما كانت هذه الهجسات والتأملات في الماضي ، وفي مختلف عصور الادب ، صورة حية لتراثنا الادبي ، فهي اليوم بشتى الوانها ، تؤلف هذه الصورة الواضحة من ادبنا المعاصر .. ولست من رأى بعض الادباء الذين يقولون ان ادبنا لا يمثل حياتنا . لا .. ان هذا الادب على اضطرابه وضعف بعض الوانه يصور هجساتنا ونزعاتنا أصدق تصوير .. وهو اليوم أقوى منه بالامس ، ولا يتسع المقام هنا لان أشير الى التطور الذي بدأ من نهاية القرن الثامن عشر الى اليوم ، فقد مرّ أدبنا ، خلال هذه الفترة الطويلة ، بعوامل مختلفة ، منها سياسي ومنها اجتماعي . ولكن حسبي ان اقول ان اتصال

الغرب بالشرق ثم ظهور المطبعة كعامل قوي في نشر الفكر ، وغزوة نابليون لمصر ، والبعثات العلمية التي أرسلها مؤسس الاسرة العلوية الى اوروبا — ان هذه الظواهر التي يبحثها مؤرخو الادب باسهاب هي المراحل الاولى لبدء تاريخنا الادبي ، ففي هذه الفترة ظهر افراد من مفكري العرب بعضهم تأثر بثقافة الغرب وبعضهم بثقافة الشرق — وجميعهم قد أوتوا هذا الفيض الوجداني لبعث الامة العربية وتحريرها من عبودية القرون المظلمة . نعم ، في هذه الفترة ظهر افراد من مفكري العرب اخذوا على عاتقهم ان يعيدوا الماضي العربي بريقه واشعاعه ، فقد قرأوا تاريخ الامة العربية ، وقرأوا ادبها الزاخر بالحكمة البالغة فرأوا ادباً قوياً وأمة لعبت في تاريخ الحضارة اكبر دور وانطوى ماضيها على امجد الصفحات .. ثم رأوا هذا الادب يضعف ويهزل بضعف الامة العربية وتقلص سيادتها . وكان بعض هؤلاء المفكرين قد قرأوا آداب الامم الحية ودرسوا تاريخ تطور الشعوب وقارنوا بين نهضة الغرب وانحطاط الشرق وكيف يعيش الاول بمجد وسؤدد والثاني في ذل وعبوديه ، فتألموا وكان الادب وسيلتهم للتعبير عن آلامهم وما تشعر به الامة من ضعف .. وقد قادهم هذا الالم الى ان تبدأ الصيحات بتنبيه الغافلين ، وبسط المعرفة في جميع انحاء الشرق — من اولئك الذين آمنوا بثقافة الغرب ولم ينكروا قيمة الخصائص العربية البستانيون واليازجيون والطهطاوي والافغاني والشدياق وغيرهم من المفكرين الاحرار الذين كانوا اول من بذر بذور الثورة الفكرية في الشرق العربي .. وقد ترك بعضهم آثاراً أدبية قيمة وظهرت عدة رسائل في اغراض ثقافية محدودة واخذت دواليب المطبعة تقذف النشرات والصحف ، وتمخض العالم العربي عن جيل جديد من المفكرين كان في طليعتهم محمد عبده والكواكبي واديب اسحق والشميّل وسليمان البستاني الذي عرب الياذة هوميروس — وتعريب الالياذة من الاعمال الادبية الفذة التي لم يظهر ما يوازيها في ادبنا المعاصر الى اليوم كأثر أدبي وان كانت الاستفادة منها مقصورة على

افراد قلائل جداً ـ كان لهؤلاء المفكرين نزعات سياسية واتجاهات اجتماعية ترمي الى بعث الشرق وتحريره وخلق « الكيان العربي » كعامل قوي في تطور الشرق .. وهنا بدأت « العنصرية التركية » تذر قرنها محاولة القضاء على هذه الروح الجديدة التي اخذ مفكرو العرب يوقظونها .. فانتبه الادباء لهذه الظاهرة الخطرة قبل ان ينتبه اليها السياسيون المندمجون في الكيان العثماني .. نعم ، انتبه الادباء لهذه الظاهرة واخذوا يرسلون صيحاتهم في جو مكبوت فأدى الادب رسالته من الناحية القومية دونما تبجح ، ومرّ الشرق العربي ، في هذه الفترة ، بمراحل سياسية مختلفة ليس هنا مجال سرد عواملها ـ من « الشرقية الاسلامية » الى « القومية العربية » ، وكان شرقنا العربي يخطو خطواته الوئيدة ، يلتفت الى الماضي اكثر من اندفاعه الى الامام .. ومع هذا ، فقد بدأ الادب المعاصر مرحلته الثالثة من تصوير هذه التيارات ، وهي ذات بواعث قومية ، فظهر جيل جديد عمل افراده جميعاً على بعث الامة العربية ذات الماضي الذهبي الجميل ، نذكر في طليعتهم محمد كرد علي وشكيب ارسلان ، ويعقوب صروف ، وجرجي زيدان ولطفي السيد وقاسم امين وفريد وجدي والزهاوي والرصافي وشوقي وحافظ والمطران وولي الدين يكن وغيرهم من رجالات الفكر الذين قضوا شطراً كبيراً من حياتهم يرسمون اهدى الطرق لسير هذه الامة وفك السلاسل التي احكم ربطها الحكام المستبدون على مر الاجيال وتعاقب القرون ..

وتبدأ هذه المرحلة في نظر مؤرخي الادب باعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ ، وكان امين الريحاني ، وهو في بدء نشأته الادبية ، بين هذه الفئة الثالثة من مفكري العرب والذين عملوا على تحرير الفكر العربي ورفع الغشاوة عن اعين الامة العربية ..

ونتناول الان في كلمات موجزة سيرة هذا المفكر الحر ..

— ٢ —

ولد امين الريحاني في الفريكة من قرى جبل لبنان ١٨٧٦ وما ان ترعرع حتى دخل مدرسة صغيرة تعلم فيها مبادئ العربية والفرنسية ، وفي العاشرة من عمره ، هاجر مع عمه الى نيورك ، حيث درس هناك مبادئ اللغة الانكليزية ، ثم اشتغل بالتجارة خمس سنوات كان خلالها مثال الامانة والاقتصاد ، ولكن هذا الوسط لم يرقه ولو ظل يمارس مهنة التجارة لكان اليوم من كبار الاغنياء ، ولكن نزعة الريحاني الى الدرس هي التي صرفته عن اوطار المادة الى عالم الفكر واشراقه ، ورأى ، وهو تلميذ ، ان في ميدان الكتب هذه العوالم السحرية التي تطمئن نزعات الانسان وتزيد في ثروته في عالم الفكر ، وهي اسمى في نظره من كنوز قارون . .

واذ بدأ نشأته الدراسية في البلاد الاميركية ، كان من الطبيعي ، ان تكون الانكليزية هي التي يحذقها قبل غيرها من اللغات . . وقد تمكن منها وهو في شرخ صباه ، واجتذبته تآليف كبار شعراء الانكليز فشغف بكتب شكسبير ومسرحياته التي ولدت فيه ميلاً الى فن التمثيل ، فدخل ممثلاً في شركة اميركية وجال معها ثلاثة اشهر ، ثم ترك هذا الفن الجميل الى فن اجمل — الى الادب الذي وهبه كل حياته .

بعد ان اتم دراسته الثانوية في المهجر دخل كلية نيورك الفقهية . . فهل دخلها ليكون من علماء اللاهوت ؟ لا اعلم . . وقد مكث فيها سنة كان خلالها مثال الذكاء والاجتهاد . . ثم ترك الكلية لعوامل صحية فقد كان انكبابه على دروسه من العوامل التي اضعفت صحته فأشار عليه الطبيب بترك الكلية والرجوع الى الوطن لأن مناخ نيورك لم يعد يلائم صحته

وفي سنة ١٩٠١ عاد الى الوطن ، وما ان استعاد صحته حتى رجع الى نيويورك، وبقي ثلاث سنوات يكتب ويخطب بالانكليزية ، وقد نشر عدة مقالات في امهات الجرائد ، وخطب عدة مرات في اندية ومحافل اميركية ، وكان يود ان يعبر عن آرائه بالعربية ، ولكن انسى له ذلك وقد اشرب قلبه منذ حداثته بكره العرب والعربية ، يقول الريحاني :

« كنت في الثانية عشرة من عمري عندما سافرت المرة الاولى الى الولايات المتحدة ، فلم اكن اعرف غير الشيء اليسير من اللغتين العربية والفرنسية، وما كان في ذهني من العرب واخبارهم غير ما كانت تسمعه الامهات في لبنان — صغارهم : هي ، جا البدوي ! والبدوي والاعرابي واحد اذا ارادت الام «بعبعاً» تخوف به اولادها !

« هجرت وطني وفي صدري الخوف ممن اتكلم لغتهم ، والبغض لمن في عروقي شيء من دمهم .. والبغض والخوف هما توأما الجهل ! » .

ولكن أيصبر الريحاني على الجهل للغته بعد ان حذق لغة قوم غير قومه ؟ واذا كانت البيئة قد قسرته على ذلك ففي طبيعته هذه النزعة التي تثور على كل ما هو غير واقعي ..

أيصبح الريحاني من شباب لبنان الذين يكتبون ويخطبون ويؤلفون بالانكليزية وهو اللبناني العربي الذي يجهل لغة آبائه وأجداده ولا يحسن التعبير بها عن آرائه وهواجسه .

لا .. ان هذا يتنافى وطبيعة الامين ، لذلك قرر ان يدرس العربية وهو في فجر شبابه ، وقد اختار الكتب اللازمة له .. ويذكر لنا هذه الكتب في احدى مذكراته الخاصة فنعرف منها انه قرأ «بحث المطالب» ومقدمة ابن خلدون ونهج البلاغة ومقامات الحريري والغرر وبعض كتب المعاصرين .

وكما قرر ان يدرس العربية فقد التفت الى دراسة حياة ابطال العرب .. والفضل في ذلك لمطالعاته كتب السير في الانكليزية ، يقول الريحاني :

« كان كارليل اول من حاد بي من ورآء البحار الى بلاد العرب. أجل، وقد يستغرب قولي اني عرفت بواسطة الكاتب الانكليزي الكبير سيد العرب الاكبر النبي محمد فأحسست لأول مرة بشيء من الحب للعرب ، وصرت اميل الى الاستزادة من اخبارهم » .

في هذه الفترة من انغماسه في الافق الدراسي الذي فرضه على نفسه بعد ان ترك الجو المدرسي كانت صحته تزداد سوءاً وكان لا بد من العودة الى ارض الوطن مرة ثانية ، وفي عام ١٩٠٤ عاد الى لبنان ينشد الصحة والاستجمام وقد كان لجمال وادي الفريكة الاثر الكبير في صحته وادبه وفلسفته . فارتمى في احضان الطبيعة يستجلي اسرارها ويسكر من عبق زهورها وجمال اشجارها، وأخذ يكتب آراءه ، في هذا الجو المفعم بالنغم باسلوب شعري مرقص ، ومرت حياته ، في هذه الفترة ، بين المطالعة والاستمتاع بجمال لبنان الطبيعي . نعم ، كانت ايامه تمرّ بين انوادي والبيت ، وبينما هو يقلب في خزانة ابيه اذ عثر على نسخة من ديوان ابي العلاء ، فقرأه باعجاب ، وراقته فلسفته ، فترجم طائفة من آرائه في اللزوميات الى الانكليزية ، وصاغها رباعيات متأثراً برباعيات الخيام ، وهنا يحدثنا كيف ان العربية اخذت تجتذبه بعد ان نشأ على كره العربية :

« عدت الى بلادي كئيباً ... وكنت لا اعرف من لغتي وآدابها غير اليسير اليسير ، فتغلغلت في سراديبها دون ان ارثي لحالي ، وبينما انا اتخبط في دياجي اللغة عثرت على كتاب شعر انساني الكسائي وسيبويه وكل من علّم حرفاً في البصرة والكوفة . جعني الله سبحانه وتعالى بأبي العلاء المعري بعد ان هداني بواسطة الفيلسوف الانكليزي الى الرسول العربي . قرأت اللزوميات معجباً بها ،

ثم قرأتها مترنماً ، ورحت أفاخر بأني من الامة التي نبغ فيها هذا الشاعر الحر، الجسور ، الحكيم ...

« عدت الى اميركا استصحب اللزوميات وكنت ترجمانه هناك فساقتني المهنة الى الدائرة الشرقية في دار الكتب العمومية ، فاجتمعت فيها بعدد من المستشرقين الذين صوروا لي الحياة رحلة في الارض دائمة ، وصوروا الارض بادية عربية نبغ فيها محمد بن عبد الله القرشي وامرؤ القيس الكندي ، الشعر والنبوة والدهناء، والواحات في بحار من ارمال ، والنخيل في الواحات يهمس في اغصانها النسيم ويهز جزوعها السمود، وصوت الساقية هي تغني للارض المنعمة في ظلل النخيل، وبنية البدو تغني لجمال الساقية .. وماذا في نيورك ؟

ماذا في نيورك غير الضوضاء والعناء والعياء والبلاء ؟

كان الريحاني في نيورك كالغريب بين شعب لا يعرف معنى السكينة ولا الراحة ولا الجمال ، وجد نفسه بين قوم « يأكلون ماشين » ويقرأون آكلين، ويعدّون النقود راكضين ، ويعبدون الاوثان قائمين قاعدين ، بل يقدمون ارواحهم واجسادهم ضحية لآلهة ما سمع بأسمائها في العصور الغابرة ، وقد عبر فيلسوفنا الشاب عن هذه المرحلة من حياته بقوله : عشت زمناً بين قوم يقال انهم مسيحيون ، ولكنهم في الحقيقة وثنيون — وثنيون بترفهم وبطرهم، وثنيون بأخلاقهم وشعورهم ، وثنيون بمطامعهم واستئثارهم ، وثنيون بتعدد آلهتهم .. وبعد ان يعدد هذه الآلهة يقول :

« واما هياكل هذه الآلهة واصنامها فأنت لا تشاهدها قائمة في الاسواق ، بل ينبغي ان تنظر اليها بعين الروح فتراها في كل حي وجماد يتحرك هناك . تعال اذن معي لأريك آلهة هذا الزمان الجديده ، آلهة هذا التمدن الحديث ، تعال معي لأريك من الهياكل والاصنام ألواناً وأشكالاً .. فهذا صنم من القطن

لآله البورص ، وذلك صنم من الفحم لآله المعادن .

وبعد ان يرمز الى هذه الآلهة التي يعبدها الاميركيون — آلهة المادة ، يقول معبراً عن برمه وضجره :

« لقد خرجت من هؤلاء المشركين طالباً في البرية ربي ابراهيم، خرجت من بينهم وانا على اعتقاد ان المرء اذا قرب من العالم الجديد يبعد عن الطبيعة وعن الشعر وعن الجمال الروحي وعن الله ، ولذلك حولت وجهي الى مشرق النفس وعدت في طريقي الى ارض الانبياء ، عدت الى وطني لأقترب من جمال الشرق الشعري وجماله الطبيعي وجماله الروحي بل الآلهي » .

وكانت نيويورك تجتذبه بأضوائها.. ولكن لا يكاد يمكث فيها فترة حتى يضيق بها ويعود الى وطنه الجميل ، الى وادي الفريكة ..

ففي وطنه وجد هذا الجمال الذي نشدته نفسه ، ولكن هـذا الوطن الذي اغدقت عليه الطبيعة اجمل حللها يشكو الكثير من العلل والاوجاع، وطن يعيش في جحيم الضلالات ، يرسف في القيود ، ينوء تحت كابوس ثقيل من الجهل والعبودية — وطنه مصفد بالسلاسل والاغلال.. وقد آلمه اكثر ان يحرم العربي من نعيم الحرية وهو الذي حطم الاصنام وكسر الاغلال في سبيل الحرية .

اقلقه ان لا يتمتع الشعب العربي بحريته ، لذلك اخذ يرسل صيحاته من الاعماق ، يرمز تارة ويصرح تارة اخرى ... هذه الصيحات هي مواد كتابه « الريحانيات » وهي مقالات وخطب وشعر منثور في اغراض شتى اكثرهـا اجتماعية ، وهي تهدف الى دك صروح الظلم وتقديس مبادىء الحرية ، وإشاعة الروح الديموقراطية بين الناس ، وفتح الطريق للامة العربية ان تنهض وتسير مع الامم الكبرى جنباً الى جنب ، وتعبر عن نزعات الريحاني الاصلاحية وثورته على

المشعوذين من الحكام والكهان الذين اخذوا على انفسهم هداية الامة وما هم في الحقيقة سوى فئة مضللة لا تفكر الا بذاتها وخسيس مصالحها .. وقد جعل شعاره في صيحاته هذه الكلمة الخالدة : قل كلمتك وامش .. فهو يقول ما يعتقده دون ان ينتظر رضاء هذا او غضب ذاك ، وهذه سمة المفكرين الاحرار الذين لا يتقيدون بقيد ويضربون التقاليد والاعتبارات بكثير من الجرأة والشمم ..

لست هنا في معرض تحليل آرائه وفلسفته لأجول جولة واسعة في هذه الناحية ، ولكن حسبي ان اقول وانا اشير الى « الريحانيات » — وقد صدر منها اربعة اجزاء وتعد مطبعة اخيه العدة لاصدار اربعة اجزاء اخرى — ان « الريحانيات » هي المادة الخصبة التي يستطيع ان يرجع اليها الباحث لدرس فلسفة الريحاني ، ودرس حالات التطور التي مر بها التفكير العربي ، في هذه الفترة التي سبقت اعلان الدستور العثماني بسنوات الى يومنا هذا ، نعم ، ففي مقالاته وصيحاته وخطبه ، يجد الباحث مادة خصبة لدرس صور التطور في حياتنا العقلية ودرس حياتنا الاجتماعية بصورة خاصة ، والسياسية بصورة أخص : فقد رسم في هذه المقالات آلامه كمفكر حر ونهجه في الاصلاح كمجدد ثائر .. واستطاع في هذه الفترة من حياته ان يضع بضعة كتب لفتت اليه انظار المفكرين ، في الشرق وفي الغرب ، فقد ترجم كما قلت ، طائفة من لزوميات ابي العلاء ، وأخرج ديوان شعر بالانكليزية ووضع رواية « المملكة الحيوانية » التي حطم فيها سلطة الاكليروس ودافع عن كرامة العقل ، وكتب رواية « خالد » واصدر الريحانيات ... وهكذا فقد استطاع وهو في العقد الثالث من عمره ان يبلغ مكانة مرموقة بين مفكري الغرب والشرق . وان يطلق عليه لقب « فيلسوف الفريكة » .

وقد رسم لنا الكاتب العصري الكبير الاستاذ محمد لطفي جمعة هذه الفترة من حياته بقوله :

« منذ عشرين سنة تقريباً » لقيت امين الريحاني لأول مرة ، وكان اذ ذاك في مقتبل العمر ، في الفترة الفنية من حياته ، متخلقاً بأخلاق الكاتب الانكليزي السير اوسكار وايلد ، من حيث تنسيق الشعر وتصفيفه وارساله على كتفيه ، وحلق الشاربين واللحية ، وكان يدخن الغليون على الطريقة الاميركية فلما رأيته كان يبدو في وجهه التشكك في كل شيء .. في حياة الفكر والعقل والدين . وكان مثله كمثل السائح الذي لم يهتدِ بعد الى الطريق ، وكان قد كتب الفصول الاولى من كتاب « خالد » فقرأ لي بعضها فاعجبت بما جاء على لسانه من وصف احوال صديقه شكيب ، ثم شرح لي مشروعه في تأليف رواية تمثيلية باللغة الانكليزية يكون بطلها الامام علي وكلمني عن تأثير صوت المؤذن في ذهنه فعجبت من ذلك الذي هجر الشرق وسافر الى اقصى بلاد الغرب واكثرها ازدحاماً واهتماماً بالشؤون الغربية، ومع ذلك فهو لم ينس أدق الاحساسات الشرقية. ثم قال « عرفت اميناً وهو لا يحسن اللغة العربية تكلماً فضلاً عن كتابتها لطول الشقة بينه وبين وطنه الاصلي ، وقدمت له نسخة من اول كتاب الفته فنظر فيه ، ثم قال لي : سأضع انا ايضاً كتباً باللغة العربية ، ولم يكن امين ممن يعدون ويخلفون، او يعزمون فيترددون، فانه بعد بضع سنين قضاها زاهداً ، منقطعاً عن الناس في صومعته بوادي الفريكة أخرج للعالم العربي كتاباً من اجل الكتب ألا وهو الريحانيات ، فأثبت بكتابه هذا انه قد بر بوعده واتقن لغة القرآن اتقاناً يسمح له بالتحرير فيجاري اكبر الكتاب اسلوباً وسلاسة وسلامة منطق

— ٣ —

بقي الريحاني في لبنان سنوات بعد اعلان الدستور العثماني يكتب ويخطب ويرسل مقالاته الاصلاحية شواظاً من نار ، وكان يزيد في ألمه ان تظل الحالة

في البلاد كما كانت قبل اعلان الدستور ... تغيرت المظاهر فقط اما الاوضاع الشاذة فظلت هي هي .. ولم يكن فيلسوفنا الشاب من اليائسين ، بل كان من المؤمنين بنزعة التطور وهذا الذي دعاه ان يعمل مع صفوة من المفكرين لمحاربة هذه الاوضاع وكأنهم كانوا يضعون نواة الثورة للتحرر من الادارة العثمانية التي لم تكن في عهد طلعت وانور ونيازي الذين اعلنوا الحرية والاخاء والمساواة احسن منها في عهد عبد الحميد ... واخذت العنصرية التركية تعمل على خنق الحرية في البلاد العربية ... والضغط على الكتّاب ، وكان الريحاني في معزل عن هذا الضغط ، بل كان ينعم في واديه بما لا ينعم به ابن المدينة . ويصف هذه الفترة بقوله :

وكان لي صديق في دمشق يجر قيوداً للسياسة ثقيلة فحاول التفلت منها ، كسرها ذات يوم ، فأثار السلطة عليه ، صفع السلطة وفر هارباً الى الفريكة ، فحل فيها اهلاً ونزل سهلاً ، أقام محمد كردعلي عندنا اسبوعاً عددناه من شوارد الزمن . اوادي مهد الحرية وحصنها الحصين ، سمعني صديقي اردد ذات يوم هذه الكلمات فقال : لا تنخدع يا امين . الوادي قريب من دمشق ومن بيروت ، وفي المدينتين للعبودية عبيد وللظلم اسياد وعاديد . لا بأس بالهمس : والحمد لله : ولكنك اذا رفعت صوتك تسمعك الصخور فتنم عليه وعلي .

فقلت صدقت ، وفي نيتي ان اهجر حتى هذا الوادي ، في نيتي رحلة الى البادية ، الى البلاد العربية على مجهن يبعدني عن كل مظلمة وكل عبودية فهلل صديقي وقال : نسير سوية ، واتفقنا يومئذ ان نستعين بتجار من نجد في الشام يمهدون لنا السبيل ويزودوننا بكتب التوصية الى اهلهم وراء النفوذ ، ولكن الايام عدوة الاحلام.. تأثرت السلطة الاثيمة صديقي كردعلي فاضطر ان يتركني وحدي في الفريكة ويفر هارباً من سوريا الى اوربا ، اما انا فقد طوحت بي الاقدار وأبعدتني ثانية عن الوادي وعن البلاد العربية كلها ، عادت بي الى نيويورك .

عاد الريحاني الى بلاد الحرية ولم يكد يستقر فيها مدة حتى شبت الحرب الكبرى فأخذ يرقب تطورات الاحداث باهتمام بالغ ، وكم كان سروره عظيما حين اذاعت اسلاك البرق نبأ تمرد الملك حسين على الترك فقد اعتبر تمرده بدء الثورة العربية الكبرى فهلل لهذا الحادث وكبر وكان يكتب كل يوم مقالاً عن اليقظة العربية وعن وحدة العرب ، وقد شعر من الاعماق ان عليه واجباً نحو قومه يجب ان يؤديه وهو اذ لم يشترك في الثورة محارباً فليكن لقلمه هذا الميدان يصول فيه ويجول اداءً لهذا الواجب القومي الكبير ...

ومرت سنوات الحرب الكبرى وهو في نيويورك كتب خلالها اصدق النزعات القومية واجمل التأملات الذاتيـة ، فمن تأمـلاته التي تدل على نزعته الانسانيـة الصافية مقالتان احداهما عن الجوع والثانية عن الصوم صوَّر فيهما اثر المجاعة التي هددت لبنان ، وقد دعا المهاجرين ان يصوموا يوماً واحداً يدفع كل واحد ما يوفره في هذا اليوم اعانة للمنكوبين ، ولكي لا يقال انه يقول ما لا يفعل كالشعراء فقد خلع ثوب الشاعرية ولبس صفات الانسان الكامـل ، اي كان اول من امتثل لدعوته ، فصام عن الأكل والشرب والتدخين ودفع نفقة اليومين الى اللجنة ، ومن كلماته التي هزت المشاعر قوله :

اخوان لنا هنـاك يعيشون في هولين .. هول المشانق وهول المجاعـة ، الفقير سيموت سغباً والغني يموت رعباً ، ونحن في هذه البلاد آمنون شر الاثنين ، يومنا زاهر وليلنا هنيء ، لا رعب يحرمنا النوم ولا جوع يحرمنا صفاء العيش .

صوموا يوماً واحداً وتصدقوا علينا بدولارين مما رزقتم ، الامة امتنا جائعة على قارعة الطريق تئن من آلم الجوع — الجوع المدقع ، الجوع المهلك فهلا تسارعنا بل تسابقنا الى اغاثتها ».

وقد كان لمقالاته صداها العميق فجمعت مبالغ ضخمة ارسلت بواسطة جمعية

« الصليب الاحمر » الى الجائعين ..

وهكذا فقد كان الريحاني لا يترك مناسبة يخدم بها قومه الا اندفع وراءها باخلاص .

— ٤ —

واذ كانت في طبيعة الريحاني ، منذ صغره ، نزعة التجوال والسفر في بلاد الله الواسعة ، فقد مل الاقامة في نيورك ، ورأى بعد ان قرأ كتاب ارفنج واشنطون عن الحمراء ان زيارة الاندلس اصبحت عنده من الفروض المقدسة ، وقبل ان تنتهي الحرب بسنة شد الرحال الى اسبانيا لزيارة تلك البلاد حاجاً ... فماذا رأى ؟ لقد بهرته وأبكته .. عاد منها وفي نفسه بهجة كمن شاهد اجمل آثار الدنيا ، ودموع من فقد اجمل آثار الدنيا .. فبكى ذلك المجد الضائع بدم القلب ومن كلماته قوله :

« طلول كانت بالأمس معاهد وقصورا ، وقصور كانت يوماً دائرة المجد وقطب الحبور ، في قناطرها وقبابها وابوابها صناعة دقيقة نادرة ، وفي كل رسم من رسومها آية جمال تدهش حتى اليوم ارباب الفن ، وفي كل بيت من الشعر على جدرانها درة من المعنى ، او زهرة من التقوى منقوشة في بلاد منقطع النظير لوناً وتذهيباً .

وصنائع الزليج في حيطانها والارض مثل بدائع الديباج

هذي آثار العرب وقد امست عروشاً لربة النسيان ، ومغنا لمجد الزمان ، وظلالا تجلب الاحزان وعبرة بليغة للانسان ، وهي وان كانت كذلك ، بهجة للناظرين ، ومصدر وحي لأرباب الفنون والمفتنين ، ولكن الذكرى فيا لله من ذكرى تفيض على النفس فتجعلها كالجماد ، لله من آثار تبتهج لمرآها العين

فيذوب لمعناها الفؤاد ، لله من بلد تغنت بمكارمه كل البلاد ، لله من عزك يا ابن امية ، ومن مجدك يا ابن عباد ، اي عبد الرحمن والمنصور والمعتمد ، من شادوا معاهد العلم والدين ، لقد طالما اهتزت النفس لذكر مآثركم وطالما وقفت العين شغفاً عن اسمائكم في التاريخ ، ولقد طالما تاقت النفس مني والعين الى مشاهدة ما تبقى من تلك الآثار المجيدة ، وها قد استجيبت طلبتي وتحقق اكبر آمالي ، فقد وطأت ارضاً عطرتها شمائل العرب وجلت بلاداً عمرتها همم العرب ، ووقفت امام عروش هدمتها عصبية العرب .

لقد كانت زيارته للاندلس من البواعث التي جعلته ان يؤمن بعبقرية العرب ، وصار حبه لقومه من العقائد المقدسة . . .

من الاندلس الى بطاح مكة .. يقول الريحاني : « .. وقفت في الحمراء في الغرفة التي كتب فيها واشنطون ارفنج كتابه النفيس ، فسمعت اصواتاً تناديني باسم القومية ومن اجل الوطن ، وتدعوني الى مهبط الوحي والنبوة . . . » وظلت هذه الاصوات تعتلج في اعماق صدره الى ان وضعت الحرب اوزارها ...

* * *

كانت الدنيا في تلك الفترة مأخوذة بمبادىء ويلسون الاربعة عشرة ـ مبادىء الحرية التي سفك العالم في سبيلها الدماء غزيرة ... كان يحلم الريحاني ان يرى اوطانه العربية متمتعة بسيادتها وحريتها ، ولكن تلك الاحلام سرعان ما انهارت عندما كشر الغرب عن نابيه ، نعم ، لم تكد تضع الحرب اوزارها حتى تكشفت الوعود الجميلة والدعاوات الضخمة عن سراب خادع فآلمته هذه النهاية اي ان تخيب الآمال وان تقع البلاد فريسة لأهواء ومطامع الدول القوية التي كانت تحارب ، فيما تزعم ، في سبيل المبادىء السامية ـ اتضح له ان الحرية

وحقوق الامم ما هي الا اسماء لا مسميات لها .

لقد كفر بمبادىء الغرب ، وضاقت روحه في نيورك : طليقة المنود بالأمس ومحظية اليهود اليوم ، فاعتزم السفر الى الشرق ... وكانت مصر اولى العواصم العربية التي استقبلته ورحبت به ، اقامت له عشرات الحفلات التي اشترك فيها اكابر مفكري العرب ، وقد اجمعوا كلهم على الاعتراف بفضله وبما اداه للفكرة العربية من خدمات ، والقى هو عدة خطب كانت اجلها واقواها تلك الانشودة السامية التي خص فيها نزعاته الحرة والتي يقول فيها :

« انا الشرق عندي فلسفات ، وعندي أديان ، فمن يبيعني بها طيارات » .

وقد ايقن بعد ان رأى الحلفاء ينكثون بوعودهم ويخونون مبادئهم ويعبثون بأقدس الرسالات - ايقن ان الصراع في الحياة طبيعي ، وان الفوز للقوي ، وان الامم التي لا تكون قوية في خصائصها المعنوية ومقوماتها المادية تكون عرضة الموت والفناء .

— ٥ —

ومن مصر شد الرحال ، الى جزيرة العرب لزيارتها ودراسة احوالها والاتصال بامرائها وملوكها وقبائلها ، وقد خرج من هذه الرحلة التي لاقى فيها الاهوال بكتاب يعد بحق من أثمن ما كتب عن الجزيرة العربية ، تضمن الوصف الدقيق والتأمل العميق والدراسة الشاملة .

وليست السياحة في الجزيرة العربية من الامور السهلة لا سيما في تلك الظروف ولرجل عاش في نعيم الترف الاميركي .

من اضواء المدنية ونعيمها الى الصحراء الموحشة وجحيمها ! .. ولكن هي

عزيمة الأمين الحيارة ، فقد اعتقد ان في عنقه واجباً عليه ان يؤديه ، وآلمه ان يقوم الغربيون برحلات واسعة وان يكتبوا عن البلاد العربية المطولات وان لا يقوم اديب عربي بالاضطلاع بهذه المهمة وهم اولى بها.. ولم تكن غاية الريحاني من رحلته هذه الدرس بقدر رغبته في ازالة هذه الضغائن والاحقاد بين ملوك العرب ، ثم توحيد هذه الامارات في مملكة عربية واحدة .. كان يحلم بالوحدة العربية وهو في نيورك ، وكان يتألم ان يرى العرب متفرقين ، وان يكون امرهم في الجزيرة بيد الاجنبي يلعب بهم من وراء الستار .

وقد زار في رحلته هذه الحجاز واليمن والعسير ونجد والنواحي التسع المحمية كما زار بلاد نجد والكويت والبحرين والعراق زيارة دامت قرابة سنتين دوّن فيها أدق ملاحظاته ودرس جميع المشاكل التي تواجه الجزيرة العربية لا سيما الروح القبلية التي تطغى على الروح القومية ، ولم يقصر دراسته على الملوك والامراء وشكل الحكم بل تناول طبيعة الجزيرة وعادات البدو وحياتهم الاجتماعية ، وهو كاتب الى اهتمامه بالموضوعية « ذاتي الاتجاه » في تدوين كل ظاهرة من ظواهر الحياة . لقد كتب كتابه بروح قومية وبنزعة ادبية وبهذه النظرة الفلسفية المجردة فجاء من أثمن ما كتب عن بلاد العرب . ويستطيع كل من فاته السفر الى تلك الاصقاع المجهولة ان يعتمد كتاب الريحاني فهو خير دليل للقيام بهذه الرحلة اللطيفة . والكتاب الى هذا ، صورة واضحة لحياة الجزيرة ومشاكلها من الناحيتين السياسية والاجتماعية معاً . وقد كان قيامه بهذه الرحلة لوناً من المغامرة.. واية مغامرة ؟ .. مرت به حالات رأى فيها الموت مرات ومرات ، ولكنه تحمل كل ذلك بصبر وخرج من رحلته قوي الايمان بأن صحراء الجزيرة العربية تضم الكنوز ، وانها ، اذا اتيح للعلم ان يستثمرها وان يوجه ابناءها هذه الوجهات القومية التي تأخذ من حضارة العصر نزعاتها المادية كان للعرب ان يلعبوا دورهم من جديد في تاريخ الحضارة .

بعد عودته من جزيرة العرب أوى الى قريته الجميلة ، الى الفريكة — الى ذلك الوادي الجميل يستجم ويرتاح من وعثاء السفر ، ولكن الأمين لا يعرف الراحة ، ان حياته جهاد غير منقطع ، وكان يجد لذاذته في التدوين والتأليف ، بل كان لا يمر به يوم دون ان يكتب عشرات الصفحات . فمن محاضرة في منتدى ، الى خطاب مدرسي ، الى مقال ثوري ، الى بحث هادىء في مجلة ، الى موضوع يشتمله كتاب ، وكأنه لم يبل غليله مما كتبه عن ابن السعود والملك فيصل في كتابه « ملوك العرب » فانصرف الى وضع كتابين عن هذين الملكين العربيين القويين اللذين سحراه بشخصيتهما . كتب مجلداً ضخماً عن تاريخ نجد ، اي عن الوهابية وابن السعود وكل ما يتعلق بنجد وملحقاتها ، كما كتب كتاباً آخر عن فيصل الاول تضمن تاريخ الثورة العربية والشيء الكثير عن خصائص فيصل فرسم بريشته الساحرة اجمل الصور عن هذا الملك العربي في مجالسه الرسمية وغير الرسمية ، في عمله وجهاده ، في جوه المضطرب وأفقه الهادىء . صور قلب فيصل في مده وجزره ، في مرحه وغمه ، في يقينه وحيرته ، بل في جميع ما يتنازعه ويتزاحم في صدره من العواطف والخواطر والآمال .. واعقب هذا الكتاب بكتاب آخر عنوانه « قلب العراق » وهو من اوسع الكتب التي تناولت تاريخ القطر الشقيق في نهضته الحديثة ، وقد تضمن كثيراً من الملاحظات الدقيقة في السياسة والاجتماع والأدب ، ولم تفارق روح النقد سجية الامين ، فهو في جميع فصول كتبه . هذا الناقد الفاحص الذي يبحث الامور بروح مجردة . وكان يعمد في كل فقرة من فقرات كتبه ، الى التوجيه القومي والنهوض بالعرب جبارة الى اسمى مراتب الحياة . . .

— ٦ —

هذا ولم يترك الريحاني ، خلال هذه الفترات ، رسالته كمجدد ، فكان

يرسل الصيحة أثر الصيحة ، داعياً الى الاصلاح والثورة على المعتقدات البالية ، وتحرير الفكر من غشاوة الاضاليل ، وله في هذا الميدان صرخات مدوية ، وقد اصدر رسالة عنوانها « التطرف والاصلاح » هي صدى آراءه في اصلاح المجتمع ... وقد فتح في احدى مقالات هذا الكتيب باب الاشتراكية على مصراعيه ، وقاد قارئه الى مشكلة المال والعمل والملاك والأجير باسلوب رمزي . وقد صدرت هذه الدعوة منه قبل عشرين عاماً ، اي قبل ان يكون هذا الموضوع في متناول كتابنا كما هو اليوم . وهو إذ يدعو الامة في رسالته الى اعتناق مبادىء الاصلاح يريد ان تجنح الى التطرف والى الثورة وان تنقض على كل ما يعيق سيرها وتقدمها ..

« اني ادعو الناس الى ثورة فكرية تذهب بما في الاخلاق والعادات والتقاليد والعقائد من فساد وسخافة وعفونة وضلال ، الثورة الادبية قبل الثورة السياسية والثورة الروحية قبل الثورة الاجتماعية .

« لو كانت هذه الانسانية مرنة في معقولها ومفهومها لأثرت فيها الحكمة والاعتدال تأثيراً حسناً سريعاً اما وهي متراخية متراصة ، بطيئة الحركة ، كثيفة الذهن والاحساس ، مثقلة بتقاليد وخرافات اقدم من اور الكلدانيين ، فلا بد من استخدام الالغام والمدافع في استنهاضها واستحثاثها ، لا بد من الخماسة تهزها ، ومن الاهواء الاصلاحية تهيج اعصابها ومن خمر الحرية يشعل في عروقها نار الهوس والمغامرة ....

« لا بد من التطرف يغضبها ، فيستفزها ، فتنشط في الأقل الى محاربة المصلحين وتستفيد من مجرد الحركة والمقاومة .

« وانك لتشاهد التطرف حتى في الكائنات ، وفي نواميس الطبيعة فما معنى الزلزال اذاً والبراكين والسيول والطوفان ، والامراض السارية ؟ وان في تاريخ

الانسان لما تسميها الثورات والحروب .

« ان الثورة مطهر الامة وقد ثارت على ما فيها من الظلم والفساد ، ان الثورة مطهر الانسان وقد ثار على ما في نفسه من قديم التقاليد والخرافات ومن لا يثور على ما في نفسه ، لا ينجو من العبودية ولا حق له ان يشكو العبودية.

« اننا ، ايها السادة والسيدات لمن افصح الشعوب لسانا ، وأغناهم بياناً ، فلا عجب اذا كثرت في بلادنا المهن الحرة ، اي المهن المهينة ، لا عجب اذا كثر فيها الادباء والمحامون ورجال الدين وكلهم يسارعون الى خدمة الامة ، كلهم يدعون حبها ، كلهم يتبارون ويتفانون في سبيل اسعادها ، ولكنهم ، غفر الله ذنوبهم ، اخطأوا السبيل ، فلو حملوا المعاول او البنادق لكانوا أخلص وأشرف في عين الله والناس » .

وهكذا كان لا يفتأ يدعو الى الثورة في كل شيء لتبلغ الامة مكانتها السامية في جبين الدهر وقد كان في جميع مباحث هذا المجدد الثائر الذي يرمي الى الواقعية في غربلة احداث التاريخ ، ففي كتابه « النكبات » وقد أثار صدوره ضجة لدى لدى بعض المفكرين الذين يعيشون في احلام الماضي — اراد ان يهز الوسنانين ليواجهوا الواقع ، كتبه بروح من الاخلاص والحب لقومه ، وقد سرد فيه النكبات التي نزلت ببلاد الشام من العهد الاول بعد الطوفان الى يومنا هذا وكيف ان سوريا كانت مستهدفة في اكثر العهود لغزوات الفاتحين .. لقد اراد الريحاني ان يوجه الشباب الى الاهتمام بمشاكل الحاضر ، ان يكونوا واقعيين في هذا العصر الذي يتطلب من الامم التي تريد التحرر ان تواجه المشاكل بكثير من القوة وفي ضوء من حقائق الحياة ، واخيراً اراد الريحاني ان يستفيد السوريون ، في عهدهم الجديد ، من عظات التاريخ بما يجعلهم اسياداً لا عبيداً ...

« اقرأوا التاريخ منزهين عن الاغراض مجردين عن الاهواء ...

« اقرأوا التاريخ لتدركوا المآسي فيه ، وتنسوا اذ ذاك قريضه وقوافيه . . .

« اقرأوا التاريخ متفهمين روحه وروح ابطاله ، فتودون اذ ذاك ان تنسوا الماضي .

« انسوا الماضي انسوه غير آسفين .

« ظفر الميت خيال لا يفيد ، وما حك جلدك مثل ظفرك .

« اذن تعالوا نتفاهم ، فنتآلف ، فنتضامن ، فنتحد في سبيل الوطن بل في سبيل الحياة .

« تعالوا نكتب صفحة جديدة في تاريخ هذه البلاد .

كان الريحاني يوجه الشباب في كتابه هذا الى دراسة الماضي بنزعة حرة وبروح ايجابية لئلا تظل عيناه مغمضتان في عصر تقوم فيه نهضات الامم على الكفاح والنضال لا على التغني بمفاخر الاجداد وهو غناء أشبه بالانين والبكاء .

— ٧ —

لقد رأينا من تطور حياة الريحاني — وحياته مندمجة اندماجاً كلياً بهذه الكتب التي أصدرها — ان هذا الاديب قد عاش حياته كلها في عالم الفكر ، ثائراً على الكهنوت ، ثائراً على الجهل والتعصب ، مؤمناً بالحرية ، داعياً الى التساهل الديني ، موجهاً الامة الى الحياة الحرة ، كان يرمضه ان تسير الامة في مضمار الحياة وان تظل بلاده تتسكع في هذه الدياجير المظلمة من العنعنات المذهبية والطائفية وان يكون ذلك سبباً لسيطرة الاجنبي .

وقد ظل الريحاني سنوات يراقب في عزلته في الفريكة نضال الامة السورية ونضال الاحرار في لبنان ضد ابالسة الاستعمار ، وكانت فرنسا من القوة والجبروت بمكان عظيم ، وكان الكتاب يعالجون القضية بكثير من الدقة والحذر ، وكان اكثرهم يلجأ الى التلميح اكثر من التصريح ، وقد عرف الادب الصحفي هذا

المون من الادب الرمزي على غير قصد منهم ، اي كان ادب الصحفيين يدور حول المقصد دون ان يجابه الحقائق الا من وطد نفسه ان يكون ضيف المنافي والسجون ، وكان الريحاني خلال هذه الفترات يدعى للكلام في النوادي والمؤسسات الادبية ، فكان يعالج القضية الوطنية بكثير من الجرأة ويندد بجرائم الانتداب بروح من التهكم والسخرية ... كان يرمز تارة ويصرح تارة اخرى ، وقد ضاق به الافرنسيون وأنذروه اكثر من مرة .. ولكنه لم يعبأ بتهديدهم وانذارهم ، وكلما تمادوا في طغيانهم تمادى هو بالتنديد بسياستهم المعوجة ... ففي الرابع والعشرين من كانون الاول ١٩٣٣ دعته جمعية التضامن الادبي في بيروت لالقاء خطاب في حفلة من حفلاتها العامة ، فاعتذر ثم لبى الطلب ازاء الحاح اعضاء الجمعية ، والقى خطاباً عنوانه « بين عهدين » كان شواظاً من نار ، قارن فيه بين العهد الحميدي وعهد الانتداب ، فكان لهذا الخطاب رنينه الداوي في البلاد ولم تجسر الجرائد على نشره ، فطبعه الشباب الاحرار بصورة سرية ووزعوه بالمئات والالوف ... وقد يكون من الامانة للتاريخ ولسيرة الريحاني المناضل في سبيل الحرية ان نورد فقرات من ذلك الخطاب الذي يصور ناحية من مآسي الانتداب في تلك الايام السود ، قال الريحاني :

(من عهد عبد الحميد قد انتقلنا الى عهد عبيد البعث ، من ظلم ظاهر الى ظلم خفي ، من ظلم مختل الى ظلم منظم ، من ظلم يحمل النبوت والكرباج فيتقيهما الناس ، الى ظلم يحمل الدساتير والمعاهدات فيقعون في اشراكها ، من الجاسوسية الحميدية قد انتقلنا الى دائرة الاستخبارات الانتدابية ، من الباب العالي المشرف على مرمره ، الى الباب الأعلى ودونه مرمرات ...

« من عهد عبد الحميد قد انتقلنا الى عهد عبيد المال ، من استبداد مكشوف معروف الى استبداد مقنع مصنع ، من استبداد صريح الى استبداد مموه ، من

استبداد باسم الباديشاه، الى استبداد باسم عصبة الامم، من استبداد يمنح الامتيازات ليدفع ديونه الاوربية ، الى استبداد يستثمر الامتيازات ويستأثر بها ليزيد ثروته ويفقر البلاد ، من استبداد يفرق ويسود لمجد الدولة ، الى استبداد يفرق ويسود لخير الاستعمار .. من عهد عبد الحميد ، الى عهد الانتداب ، من عبودية ادبية روحية ، الى عبودية اقتصادية مادية ، من عبودية تحسن السكوت، الى عبودية لا تحسن غير الكلام ... من سياسة المستفيمين في نفاقهم ، الى سياسة المنافقين في استقامتهم ، من قوانين ونظم ثابتة ، الى نظم وقوانين تتغير كل يوم ، من ذل في ابواب القناصل ، الى ذل في ابواب المستشارين .

« كانت البلاد السورية واحدة من معان الى جبل طوروس ، فصارت اربع دولات عظيمات مستقلة الواحدة عن الاخرى، وكلها تئن من كابوس واحد ، من الميزانية ، كلها على وشك الافلاس ... دولات ، دويلات ... القاب مملكة يجددها هؤلاء الفرنسيين في آخر الزمان... وتقشفوا ايها الناس وجوعوا لتتمكنوا من دفع الضرائب ، وسبحوا بعد ذلك باسم الدستور بل باسم الدساتير والبرلمانات ..

من عهد عبدالحميد الى عهد الفرنسيين ...

والخطاب كله على هذا الوتر او على هذا النغم الذي ازعج الفرنسيين واقض مضاجع اذنابهم فدسوا عليه وهددوه وكانت النتيجة ان اصدرت السلطة الفرنسية امرها باخراج الريحاني من البلاد بحجة انه اجنبي ــ وكان يحمل الجنسية الاجنبية بحكم مهاجرته ــ ماذا ؟ امين الريحاني اجنبي .. لقد صرخ في وجوههم قبل ان ينصاع لأوامرهم الباطلة ، هذه الصرخة الداوية :

« ... انا المولود بالفريكة ، في قضاء المتن، في قلب هذا الجبل المدفونة فيه عظام اجدادي .. انا الاجنبي .. وانتم .. اني استغفر الله لكم .. !! .. »

وظل في وطنه كما كان لا يترك مناسبة دون ان يندد بسياستهم المعوجة التي كانت ترمي الى جعل البلاد مستعمرة من مستعمراتهم الذليلة التي تقاسي ابشع الوان الذل والموت والهوان .

— ٨ —

بعد هذه الفترة الطويلة التي قضاها في لبنان من عام ١٩٢٢ الى عام ١٩٣٧ عاد الى اميركا وهناك اخذ يتابع رسالته السياسية في سبيل القضية العربية، واجتذبته بصورة خاصة قضية فلسطين . وقد يكون الريحاني اول عربي رفع صوته في اميركا ، دفاعاً عن عروبة فلسطين ، وقد انهالت عليه الصحف الاميركية ومحطات الاذاعة التي يسيطر عليها الصهيونيون بالسباب والشتم، وارادوا ان يفندوا حججه باباطيلهم ومغالطاتهم ... ولكنه لم ييأس فخطب كثيراً واذاع عدة اذاعات ، وناقشهم برصانة وحكمة كما كتب الكثير من المقالات في الصحف غير الخاضعة لسيطرة الصهيونيين ، وبعد ان أقام سنتين في اميركا يشرف على طبع كتبه بالانكليزية زار في اوائل عام ١٩٣٩ المغرب الاقصى فاحتفلت به السلطات الرسمية والهيئات الشعبية ، وقد تغلغل في هذه المنطقة المغربية العربية للدرس والبحث فقابل فرنكو كما قابل الخليفة مولاي الحسن وتحدث الى الوزراء والزعماء والاساتذة وجميع طبقات الشعب واستطاع ان يجمع معلومات ضافية عن اخواننا العرب في تلك المناطق المنكوبة بالاستعمار وكان ذلك مادة كتابه عن المغرب الاقصى ، وقد حرص وهو في ضيافة الاسبانيين ، ان يثير الروح العربية في قلوب اخوانه وأبناء عمومته وان يعود بأحاديثه مع المفوض السامي الاسباني الى اثر العرب في اسبانيا ، فبهره بوفرة معلوماته .. وما كان من المفوض السامي الا ان القى خطبة في حفلة تكريم الأمين أشار فيها الى اثر الحضارة التي تركها العرب في اسبانيا . وصرح باسم فرنكو باننا « لسنا نرغب فقط في ان نبعث

قرطبة وفي ان تعود العربية لغة الثقافة العالمية كما كانت في العصور الوسطى ، بل اننا لنحلم بايجاد وئام وتضامن وعلاقات وثيقة بين الثقافتين اللاتينية والعربية ونفكر في احداث تناسب وتناسق بين الاسلام والنصرانية ، فالشعب العربي كان اكثر الشعوب تسامحاً ، وكان تساهل وتفاهم حينما كانت العربية هي التي تحكم في البحر الابيض المتوسط »

وقال له فرنكو : انه موطد النفس على تأسيس مكتبة عربية في احدى عواصم الاندلس يجمع فيها المخطوطات العربية ، فتكون تلك المكتبة محط رحال العلماء والمؤرخين وكل مشتغل بالعلم والادب من العرب والاسبان .

ومع ان الاسبانيين قد أضافوه ومنحوه أرفع وسام ، وسموه مديراً شرفياً لمعهد الدروس العربية فكل هذا لم يمنعه ان يقول الحقيقة صريحة وان يكشف لنا في كتابة « المغرب الاقصى » — وقد نشر بعض فصوله — اشياء غاية في الخطورة عن اخواننا العرب ، أحفاد الاندلسيين ، في تلك المناطق المحكومة بالحديد والنار ..

فاريحاني ليس ممن يخدعون بوعود السياسيين ، ولا يؤخذ بمظاهر التكريم دون ان يقول كلمته صريحة .

ومن المغرب الاقصى عاد الى لبنان — رجع الى الفريكة — وكره الجميل ، يتأمل الطبيعة ويكتب تاريخ لبنان — تاريخ هذا الجبل الاشم الذي انبته واضفى عليه من خلوده اجل الحلل .. ومن لجمال لبنان وأمجاده ومفاخره ان يكتب تاريخه على ممر الاجيال والعصور غير فيلسوفه الامين ..

وقد كتب مئات الصفحات عن لبنان بعد ان قام في ربوعه برحلات متتابعة ، منذ اربعين عاماً ، مشياً على الاقدام وركوباً على ظهور الحمير والبغال ، اي قبل ان تصبح الطرق مسلوكة ، كما هي عليه اليوم ، وقد اراد الريحاني

من زياراته هذه ان يعرف وطنه حق المعرفة بسهوله ووديانه ، بجباله ومرتفعاته، وان يقف وقفات طويلة عند كل بقعة وأثر باحثاً منقباً متأملا ، واراد ان يدرس الخلق اللبناني والكرم اللبناني والخصائص اللبنانية في جميع مناطق الجبل — في شماله وجنوبه ، في شرقه وغربه — وقد زار ، كما اشرت ، اكثر تلك المناطق قبل ان تغزوها مدنية الغرب وبعد ان غمرتها باضوائها الفاتنة ، فوصف هذه المفاوقات باسلوب هو السمو في التحليل والنفاذ الى الاعماق ، والريحاني اديب قوي الملاحظة يعرف كيف يصف الطباع والعادات وخصائص الخلق والسجايا ، فهو ينتقل من الوصف الى التحليل الى البحث الى التفلسف ، وقد يهبط مع قارئه الى المنحدرات ليصف سذاجة القرويين ثم يرتفع الى القصور المترفة لينقد هذه الميوعة في الاخلاق ، وقد يهزأ بالتاريخ ليروي الاساطير باسلوب شعري . والخلاصة ان الريحاني لم يترك ناحية من النواحي التي تميز لبنان الا عرض لها بالوصف ويجد القارىء في جميع فصول كتابه هذه المتعة التي تأخذ القارىء بسحرها وكأنه يقرأ قصة من أروع القصص .. و كأن الريحاني، اراد ان يختتم حياته الادبية بعمل فذفكتب هذا الكتاب الذي يصوره اجمل تصوير .

* * *

كان الريحاني يتمتع حتى آخر حياته بصحة جيدة ونشاط محمود ، كان لا يشكو شيئاً .. ولكنه هو القدر ، فقد انطفأت تلك الجذوة المشعة التي لم تعرف الخمود ، فروعت البلاد العربية في الثالث عشر من شهر ايلول سنة ١٩٤٠ بفقد هذا الكاتب المفكر والاديب الحر الذي ترك ثروة ادبية هي سجل واضح لتطورنا الفكري في هذه الفترة التي مرت من اواخر القرن التاسع عشر الى منتصف القرن العشرين ...

وأقف عند هذا الحد ، وما قدمته ليس الا لمحات سريعة من حياة فيلسوف الفريكة ولم اعرض لكثير من آرائه في الحياة والادب والاجتماع ، فلأمين الريحاني جوانب كثيرة جديرة بالدرس : حياته الفكرية ، اتجاهاته الروحية ، آراؤه الثورية ، نزعاته التقدمية ، مقامه كأديب مصلح ، جهاده القومي في السياسة العربية ، وهذا كله يحتاج الى اكثر من دراسة واحدة ، فقد كان رحمه الله ، اكثر ادبائنا انتاجاً ، وقد يكون الوحيد بين المفكرين الذي انصرف الى الحياة العقلية يعيش في ظلالها ، يكتب ويؤلف وينتج بدون انقطاع ، وقد ترك ما يقرب من خمسين مؤلفاً وترجمت كتاباته الى ما يزيد على خمس عشرة لغة ، وهذا ليس بالشيء القليل ، وليس من السهل ان أُلخص في صفحات معدودة جهاد خمسين سنة في ميادين الادب ، وكل ما ارجوه ان اكون اعطيت القارىء صورة صادقة عن اديب معاصر لعب اكبر دور في حياتنا العقلية .

سامي الكيالي

DATE DUE

892.74:R26YkaA:c.1
الكيالي، سامي
امين الريحاني
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
0103172
A.U.B. LIBRARY

892.78
R572YkA
c.1